

إن الأشكال هي لغة الفن، كما أن الأنغام هي لغة الموسيقى، وهذا القول قد يبدو واضحا في ظاهره لا يحتاج إلى إثبات، لكنه في الواقع من أصعب الأمور فهما وأشدها لبسا بالنسبة لمعظم الناس، وذلك لسببين جوهريين:

- الأول: أننا نخلط عادة - فيما يتعلق بالفن - بين "الشكل" و"النسخة"، فننظر إلى اللوحة الفنية على اعتبار أنها مرآة تعكس صور كائنات نعرفها من قبل، أو بمثابة نافذة على هذه الكائنات.

- الثاني: أننا نخلط بين الأشكال والمعاني اللغوية، فلا نرى في الشكل غير ما يمكن التعبير عنه بواسطة الكلمات.

الفن والموسيقى: والغريب أننا لا نخلط هذا الخلط فيما يتعلق بالموسيقى، فنحن لا نستمع إلى الأنغام والألحان على أنها تقليد لأصوات نعرفها من قبل، كما أننا لا نبحث - من فورنا - عن المرادف اللغوي لهذه الأنغام والألحان، ولا نحاول "تفسيرها" من أجل تذوقها.. ولكن يبدو أن أذاننا قد تعودت على الاستماع إلى الأنغام والألحان في ذاتها، "وفهم" لغتها الخاصة بها بغير وساطة الكلمات أكثر مما تعودت أبصارنا على تأمل الأشكال والصور في ذاتها، "وفهم" لغتها الخاصة بها دون إسناد إلى لغة الكلام.

تدريب العين: وإذا كنا محتاجين مع ذلك إلى تدريب أذاننا على سماع الموسيقى لإحسان تذوقها، فإن عيوننا لأشد حاجة إلى هذا التدريب على تأمل الأشكال، لإحسان رؤيتها والنفاذ إلى مضامينها، وكما أن أذاننا تحتاج فوق

ذلك - إلى تدريب جديد -، كلما تعلق الأمر بنوع من الألحان لم نعهده من قبل، كذلك لابد للعين من تدريب جديد كلما تعلق الأمر بطراز من الفن لم نألف من قبل رؤيته.

على أن عملية التدريب - في جميع الأحوال - ليس لها حدود، وهي عند الفنان تستمر مدى الحياة.

طبقات الرؤية:

والرؤية طبقات وأنواع. فنحن قد ننظر إلى شجرة، ثم نكتفي بتبيين أنها شجرة وليست حجرا مثلا ولا حيوانا. وهذا هو أبسط أنواع الرؤية وأشدها شيوعا. وقد ننظر إلى الشجرة نظرة العالم الطبيعي، فينصرف تفكيرنا على التو إلى فصيلتها مثلا، وموقعها من عالم النبات. وقد ننظر إلى الشجرة نظرة الفيلسوف فنستغرق في ضروب من التأملات، ذاهلين على الأغلب من الشجرة في ذاتها، باحثين مثلا في "كنه" هذا الشيء الذي نسميه نباتا، وقد ننظر إلى الشجرة نظرة الشاعر، فنأمل نضرة أوراقها، ثم تتداعى المعاني في أذهاننا، فنفكر في الربيع مثلا أو الشباب أو بهجة الحياة.

أما الفنان، فقد ينظر إلى الشجرة نظرة الشاعر أو الفيلسوف، ولكنه لا يقف على الأرجح عند هذا الحد، لا يكتفي بنظرة "تحوم" حول الشجرة هي من أي نوع من النبات، وإنما يتأمل على الأخص هذه الشجرة المعينة، من حيث هي شكل فريد من نوعه، لا يختلف فقط عن أشكال الكائنات الأخرى، بل عن كل شجرة غيرها حتى وإن كانت من صنفها.

وإن الفنان ليستغرق في هذه الرؤية بمعنا النظر في "سحنة" هذا الشكل

وقسماته، بل في "شخصيته" الفذة، حتى لا يكاد يذهل عن صورة الشجرة التي تبدو للعيان أول وهلة، لأن هذا الشكل وإيحاءاته الغامضة تستولي على وعيه ومشاعره جميعا.

مقومات اللوحة:

لكل لوحة فنية تشكيلة أي كان انتماؤها المدرسي شكلا ومضمونا، وهدف الفنان هو جعل الشكل وصولا إلى المضمون، وليس مجرد نقل أو تقليد للمرئيات.

الشكل في اللوحة الفنية التشكيلية:

يتكون الشكل في أي لوحة تشكيلية من مجموعة مفردات وعناصر متكاملة ومتراصة، هي:

- أ - مساحة فارغة محاطة بإطار عام يحدد شكلها الخارجي أبعادها ونسبها.
- ب - مجموعة الخطوط المتعانقة والمتشابكة والمتقاطعة والمرسومة في هذا الفراغ.
- ج - مجموعة الأشكال والتكوينات التي تخلقها هذه الخطوط والفراغات المحيطة بها.
- د - مجموعة الألوان المفروشة أو

المتبثة على سطح هذا الفراغ. مجموعة الخطوط المتعانقة والمتقاطعة والمتوازية المرسومة داخل هذا الفراغ، لكل خط من هذه الخطوط دلالة وإيحاءاته وقيمه الجمالية والتعبيرية: فالخط المنكسر يوحي بالحدة والصرامة والقسوة والشدة، بينما يوحي الخط المنحني بالليونة والطلاوة والوداعة والمرونة. والخط المستقيم يوحي بالرسوخ والثبات والاستقرار والاستقامة.

الشكل :

هو مساحة أو مساحات تحيط بها خطوط، وقد يكون هندسياً ذا بعدين طول وعرض كالمربع والمثلث والمستطيل الخ... أو ذو ثلاثة أبعاد طول وعرض وعمق حيث نسميه حجماً كالمكعب والهرم وموازي المستطيلات.

الشكل العام :

الشكل هو المظهر العام وقيمته تحدده الصفات التي تتوافر له، في جميع عناصر تكوينه من خطوط و مساحات و فراغات، و تناسب في الوحدات والتأثيرات اللونية. وهو يرتبط بمدى تألف هذه الصفات وانسجمها و توافقها معاً، و ملاءمتها للأرضيات و الفنان يعمل جاهداً على تحقيق جمال الشكل العام في إنتاجه، و يحاول دائماً أن يصل إلى التكوين المتكامل في كل أعماله. و يتطلب ذلك مهارة و قدرة فنية خاصة. و قد حقق الفنانون في مختلف العصور الفنية القديمة و الحديثة و المعاصرة جمال الشكل العام بأساليب متفاوتة تبعا لفلسفة كل من هذه العصور و قد تحقق ذلك في أعماله الفنية.

أبجدية الأشكال :

— و كما أن اللغة تقوم أصلاً على عدد معين من الحروف ، يبلغ نحو الثلاثين حرفاً، تتألف منها كلمات تضمها قواميس هذه اللغة، و كما أن الموسيقى تقوم أصلاً على سبعة نغمات، يؤلف منها الموسيقى ما لا سبيل إلى حصره من "الجمال" و الألحان، كذلك يمكن القول أن الفن يعتمد أساساً على عناصر شكلية تتخلص في الخطوط و السطوح و الكتل و الألوان و الأنوار و الظلال ... و من هذه العناصر التي يمكن أن تضاف إليها عناصر أخرى — مثل "الملمس" أي نعومة السطح أو خشونته، و مثل "شفافية" الألوان أو "كثافتها" و مثل "توتر" الخطوط أو "رخاوتها". — يؤلف الفنان لغته الخاصة،

التي يعبر بها عما يختلج في أعماق نفسه من مشاعر معقدة و عواطف مركبة مبهمة. و هذه اللغة، هي التي ينبغي أن ندرب أبصارنا و بصائرنا على تأملها، كي يتاح لنا استشفاف "معانيها" التي يتعذر أن نجد لها مرادفات فيها تنطق من الفاظ و كلمات.

- القراءة التشكيلية :

بعد أن يمارس الفنان لغة التشكيل في جميع هذه العناصر مجتمعة أو منفردة سوف نحصل على جمل مقروءة من حيث قدرة التشكيل على الإثارة الفكرية. يتضح من هذا أن اللغة التشكيلية، هي لغة صامتة تمس الإحساس الإنساني، و هي ليست بالقراءة اللغوية، أو استخدام منطق اللغة الألف بائي في صناعة الصورة، و أن هذه اللغة صوت صامت داخلي غير مسموع. لهذا يتضح أن الأمية التعليمية، توازيها في الجانب الآخر الأمية الفنية. و إذا أردنا أن نقارن بين لغة التشكيل و لغة اللفظ، و الفارق بينها نجد أن عناصر اللغة التشكيلية :

- النقطة
- الخط المستقيم
- الخط المنكسر
- الخط المنحني
- القوس و الدائرة
- المساحة
- اللون
- الضوء
- الحجم
- الحجم الضوئي

الجملة التشكيلية :

— و هي العناصر السابقة الذكر، أو عنصر واحد منها أو عنصران يمكن أن تكون مجتمعة في جملة مفيدة.

- أنواع الأشكال :

و الأشكال الفنية ليست من نوع واحد. إذ يمكننا أن نقسمها مثلاً : تبعا

للعناصر التي نستخدمها، فنقول أن منها ما يعتمد أساساً على الخطوط كالفن الياباني، و منها ما يعتمد أساساً على الألوان و انعكاسات الضوء كالفن التأثيري، و هلم جر... كما يمكننا أن نقسمها تبعا لروحها العامة، فنقول مثلاً : أن منها ما يتميز خاصة بالاتزان و الاستقرار كالفن المصري القديم و منها ما يتصف بالخفة و الرشاقة كالفن الإغريقي، و منها ما يتسم بالحيوية كالفن الهندي و منها ما تغلب عليه النزعة الدرامية الحادة كالفن الحديث.

غير أننا نفضل الآن أن نقسم الأشكال الفنية تقسيماً مبدئياً من حيث أسلوبها، فنقول أن هناك نوعين أساسيين هما : الأشكال الزخرفية من ناحية، و الأشكال التعبيرية من الناحية الأخرى.

على أن النوعين قد يمتزجان، بل هما يختلطان في غالب الأحيان، فنجد أشكالاً زخرفية تعبيرية، كما نجد أشكالاً زخرفية ذات مسحة تعبيرية، أو أشكال تعبيرية ذات نكهة زخرفية.

الأشكال الزخرفية :

— الأشكال الزخرفية هي — بوجه عام — أبسط أشكال الفن و أيسرها تذوقاً، لأن مضمونها يكاد يقتصر على ما يبهج العين ليس إلا و نقول "يكاد يقتصر" على ذلك، لأننا نعلم أن ما يبهج العين لا يمكن إلا أن يبهج النفس في آن واحد. و لكننا مضطرين إلى هذا التبسيط في التعريف، لإبراز الفارق بين هذه الأشكال و الأشكال التعبيرية. و أبسط الأشكال الزخرفية هو ما يقوم على تكرار "وحدة" بانتظام، أو عدة وحدات بالتناوب. و قد تقتصر هذه الوحدة على مجرد دائرة أو مثلث أو نحو ذلك من الأشكال الهندسية البسيطة كما قد تحتوي على عدة أقواس متشابهة مختلفة الانحناءات مثل الزخارف العربية أو على أشكال محورة من صور النبات أو الحيوان أو الإنسان مثل بعض النقوش المصرية القديمة. و الغالب أنه كلما كانت

الوحدة متعددة العناصر، كلما كان المضمون الزخرفي العام أغنى وأغصب. ولكن ليس ذلك بالقاعدة المطلقة، فإنما يتوقف الأمر بالأخص على جمال الوحدة في ذاتها، وعلى الشكل الناجم من تكرار ولسنا ندري - على وجه التحقيق - لماذا يبعث فينا هذا التكرار أو التردد إحساسا بالإنشراح والطرب. ولكننا لا نلاحظ هذا النوع من الأشكال الزخرفية قد عرفته جميع الشعوب منذ أقدم العهود، كما أننا نجد ما يماثله في الأنواع الشعبية الساذجة من الموسيقى وفي تكرار "التفصيلية" والقافية فيما يتعلق بالشعر.

- على أن الأشكال الزخرفية لا تعتمد جميعا على التكرار، فمنها ما يقوم فقط على انسجام الخطوط أو السطوح أو الكتل والألوان، أو على توافق هذه العناصر جميعا وتزاجها في كل واحد. والأمثلة على ذلك عديدة، فهي تتدرج من الخلية البسيطة التي قد تزين غلاف كتاب، أو الإناء الرشيق البسيط الذي يوضع على منضدة، حتى تصل إلى اللوحة الزخرفية الأخاذة التي تزين مسرحا، أو التمثال البديع الذي يزين حديقة.

الأشكال التعبيرية:

- وإذا كانت الأشكال الزخرفية تشبه بالغناء الذي يبعث على الطرب الساذج البريء، فإن الأشكال التعبيرية لأشبه بالسمفونية أو الرواية الدرامية. على أنه ينبغي أن نحترس من مثل هذه المقارنات، إذ هي قد تحملنا على الخلط من جديد بين "المعاني" التي ينطلق بها الشكل، وما تعودنا عليه من المعاني اللغوية.

- ثم ينبغي ألا ننسى أن الفن لا يدخل فيه عنصر الزمن إلا في حالات شاذة، في حين أنه عنصر أساسي في المسرح والموسيقى على السواء. وتجرد الفن من عنصر الزمن يكسب معانية صفة "الأنية" التي ينفرد بها دون جميع وسائل التعبير الأخرى.

- وعلى أن الزمن الذي نتحدث عنه هنا هو ذلك الذي يسير في خط أفقي متنقلا من لفظ إلى لفظ، أو من نغم إلى نغم، أو من حدث إلى حدث. ولكن الفن زمن من نوع آخر، يمتد إلى الأمام مع نظرة العين المبصرة، نافذا إلى طبقات المعاني التي يتضمنها الأثر الفني. فنحن حينما "نستغرق" في تأمل لوحة أو تمثال، نستغرق برهة من الزمن. غير أن هذه البرهة لا تقاس بالدقائق والساعات، لأن المعاني التي ينطوي عليها العمل ليس نقطة معينة تبدأ منها أو تنتهي عندها، وإنما هي مترابطة متشابكة يحيل بعضها إلى بعض في كل لحظة من لحظات التأمل.

الخاتمة:

- الشكل هو بمثابة القلب النابض للصورة إذ يجعلها مفعمة بالحب والحياة تتسم بنوع من الحركة والحيوية بل لا يمكن الاستغناء عنه في إبراز تفاصيلها و تراكيبها، وإيصال مغزى أفكارها إلى أعماق وجدان المشاهد، وبه أيضا يتم إيضاح معالمها وفك رموزها عن طريق التمعن والقراءة والتحليل فنكتشف أسرارها ومكوناتها.

كيف لا وهل هناك أصدق من الفيلسوف الصيني كونفوشيوس حين قال: "رب صورة خير من ألف كتاب"

قائمة المراجع:

- * المرجع: دراسات في الفن.
- المؤلف: د. رمسيس يونان
- دار النشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- * المرجع: النقد الفني و قراءة الصور.
- المؤلف: د. عفيف بهنسي
- دار النشر: دار الكتاب العربي.
- * المرجع: عالم الفكر.
- تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت
- المجلد السادس والعشرون أكتوبر/ديسمبر 1997.
- * المرجع: فن الزخرفة.
- المؤلف: حسين علي حمودة
- دار النشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب 1972.
- * المرجع: دليل الزخرفة.
- المؤلف: محمد شفيق زاهر
- دار النشر: دار دمشق للطباعة والنشر.
- * مجلة العربي.
- العدد 511 الصادرة بجولية 2001
- الموضوع: كيف نتذوق اللوحة بقلم فواز يونس